إشراقات النتاج الأدبي في وصيّة الإمام الباقر عليه السلام دراسة جماليّة

الباحث
عمّار الزويني الحسيني
جمهورية إيران الإسلامية
جامعة طهران ـ كليّة الإلهيّات
Ammaralzwainy7@gmail.com

الملخص:

لقد احتوت النصوص الأدبيّة في وصيّة الإمام الباقر عليه السلام على دراسة جماليّة ذات جاذبيّة رائعة، فقد تضمّنت البعدين اللغويّ (الصوتيّ) والدلالي.

إنّ المقالة تضمّنت جماليّة اللفظة والعبارة في المستويين الصوتي، والدلالي؛ وذلك لأهميتهما في الدراسة الجماليّة، وأيضاً تضمّنت جماليّة الأسلوب النثري، فلو طالعنا بعض النصوص النثريّة في وصيّة الإمام عليه السلام، لأدركنا أنّ الإمام الباقر عليه السلام استعمل الجمال في اللفظة والأسلوب دون التكلّف والتصنّع اللفظي، فكلامه كالماء الجاري الذي يسيل في مجرى ليّن مسترسل بألفاظ بديعة جميلة مفعمة بالمعاني وتراكيب فصيحة، ولم يكن يصدر من الإمام عليه السلام تكلّفاً والتماساً للصنعة قطّ، بل نشأ عن موهبة واستعداد للفصاحة والبلاغة مستلهماً صياغة ألفاظه من بلاغة القرآن الكريم.

ومن النتائج التي توصّل إليها المقال هي: الاهتمام بدور الحروف ودلالاتها، وقيمها الفنيّة، وكذلك الأساليب الدلاليّة من التكرار والسجع والإيقاع وحسن الابتداء والختام في عبارات لطيفة.

الكلمات الرئيسة: النصوص النثريّة، الجمالية، الباقر عليه السلام.

المقدّمة:

لا شكَّ أنّ أدبَ الإمام الباقر عليه السلام كلّه كسبيكة مفرغة، لا تختلف حروفها في الطريقة والأسلوب، فهو أدبٌ لا يصح للأدباء نسبته إلاّ لأديب بليغ وضليع في فنّ الأدب، فالباقر عليه السلام له صدر المقام في البيان، وهي القدوة في مقام الفصاحة والبلاغة.

لو أنعمنا النظر في طبيعة اللفظة والعبارة في نثر الإمام وكيفيّة جريانهما على أنساق تركيبيّة معيّنة تحدّد دلالاتها ومعانيها الدقيقة نراهما يجريان وفقاً لسياق معين متّحد النصّ يفجّر إمكانات اللغة، ويحكم اتصالها بحقل جماليّ معين دون غيره، وقد اقتطفنا من نثر الإمام الباقر عليه السلام لاسيما حينما وقعت أيدينا على المصادر المعتبرة التي ذكرت وصيّته لجابر الجعفي، فَرُحْنا مبتهجين فرحين نغوص في أعماق نتاجه الأدبي ممهدين لبحث متواضع أسميناه (النتاج الأدبي لدى الإمام الباقر عليه السلام دراسة جماليّة(النثر أُنموذجاً) في مبحثين: الأوّل: جماليّة اللفظ والعبارة في نثر الإمام عليه السلام، والثاني: جماليّة الأسلوب النثري، وقد سلّطنا الضوء على أنموذج واحد(وصيّة الإمام لجابر الجعفي).

لا شكّ أنّ النثر يعتبر وثيقة حال كلّ عصر من العصور الأدبيّة إذ نجد في النثر اللغة والبلاغة فضلًا عن الحقائق، ونقلًا للحوادث، فالنثر يمثّل المشهد الإعلامي لكلّ عصر. إنّ النتاج الأدبي لدى العظماء تجعل المتتبّع لهم يتقصّى آثارهم من أقوال وأفعال ويحاول التدبّر في درر كلامهم، ولاسيّما بأنّ الكلام الذي نودُّ الإبحار فيه صدر عن شخص يُعتبر باقر علم الأولين والآخرين، لذا فالإمام الباقر عليه السلام يُمثّل المصدر الثرّ للأدب العربي.

على أنّنا بذلنا جهدنا، وأعملنا فكرنا المتواضع كي نضع هذا البحث بالمستوى المطلوب عسى أن ينفعنا في الدنيا والآخرة، فيكون لنا زاداً أدبيّاً نتقع من عذب ماءه في أولانا، ونوراً نستضيء به في أخرانا ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء /٨٨-٨٩)، وأن نوفّق لنيل شفاعة الإمام الباقر عليه السلام في الدارين، وما توفيقنا إلاّ بالله عليه توكّلنا.

خلفيّة البحث:

يُعدّ النثر أحد ركني الأدب العربي، ففيه عُرفت فنون الأدب، لذا يمكن القول: إنّ أدب الإمام الباقر عليه السلام يمثّل مرحلة من مراحل اللون الفنّي في الأدب العربي، ولهذا السبب ازداد اهتمام الباحثين بتراثه ونتاجه الفكري.

وأمّا الدراسة الجماليّة لنتاج الإمام عليه السلام يبدو أنّها لم تدرس بشكلٍ مكثّف، لذا وجدنا بعض الدراسات التي تطرّقت لدراسة آراءه دراسة فقهيّة ورجاليّة، وبعضها تحليليّة، لذا لم نجد دراسة تطرّقت لدراسة جماليّة لتراثه عليه السلام، ولذلك شرعنا بالبحث عن كنوز ذلك التراث.

أسئلة البحث:

١- ما هي جماليّة اللفظة والعبارة في نتاج الإمام الباقرعليه السلام الأدبي؟

أ- ما أثر التكرار في نتاج الإمامعليه السلام الأدبي؟

ب- هل يمكن أن يكون النتاج الأدبي للإمامعليه السلام مصدراً للساحة الأدبيّة؟

فرضيّات البحث:

١- تكمن جماليّة اللفظ والعبارة عند الإمامعليه السلام في الموارد الآتية:

التكرار- السجع- الإيقاع- الجناس- حسن الابتداء والختام.

أ- إنّ للتكرار أثراً كبيراً في نتاح الإمامعليه السلام لأجل التوكيد.

ب- يمكن أن يكون نتاج الإمامعليه السلام الأدبي مصدراً أدبيّاً لما فيه من مضامين أدبيّة نادرة.

وصيّة الإمام الباقر لِجَابِرِ بْنِ يَزِيدَ الْجُعْفِيِّ:

((يَا جَابِرُ اغْتَنِمْ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ خَمْساً: إِنْ حَضَرْتَ لَمْ تُعْرَفْ، وَإِنْ غِبْتَ لَمْ تُفْتَقَدْ، وَإِنْ شَهِدْتَ لَمْ تُشَاوَرْ، وَإِنْ قُلْتَ لَمْ يُقْبَلْ قَوْلُكَ، وَإِنْ خَطَبْتَ لَمْ تُزَوَّجْ، وَأُوصِيكَ بِخَمْسٍ: إِنْ ظُلِمْتَ فَلَا تَظْلِمْ، وَإِنْ خَانُوكَ فَلَا تَخُنْ، وَإِنْ كُذِّبْتَ فَلَا تَغْضَبْ، وَإِنْ مُدِحْتَ فَلَا تَفْرَحْ، وَإِنْ ذُمِمْتَ فَلَا تَجْزَعْ.

وَفَكِّرْ فِيمَا قِيلَ فِيكَ، فَإِنْ عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا قِيلَ فِيكَ فَسُقُوطُكَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ عِنْدَ غَضَبِكَ مِنَ الْحَقِّ أَعْظَمُ عَلَيْكَ مُصِيبَةً مِمَّا خِفْتَ مِنْ سُقُوطِكَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى خِلَافِ مَا قِيلَ فِيكَ فَثَوَابٌ اكْتَسَبْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْعَبَ بَدَنُكَ.

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا تَكُونُ لَنَا وَلِيّاً حَتَّى لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَقَالُوا إِنَّكَ رَجُلُ سَوْءٍ لَمْ يَحْزُنْكَ ذَلِكَ، وَلَوْ قَالُوا إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ لَمْ يَسُرَّكَ ذَلِكَ، وَ لَكِنِ اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كُنْتَ سَالِكاً سَبِيلَهُ زَاهِداً فِي تَزْهِيدِهِ رَاغِباً فِي تَرْغِيبِهِ خَائِفاً مِنْ تَخْوِيفِهِ فَاثْبُتْ وَأَبْشِرْ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا قِيلَ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُبَايِناً لِلْقُرْآنِ فَمَا ذَا الَّذِي يَغُرُّكَ مِنْ نَفْسِكَ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنِيٌّ بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ لِيَغْلِبَهَا عَلَى هَوَاهَا، فَمَرَّةً يُقِيمُ أَوَدَهَا وَ يُخَالِفُ

هَوَاهَا فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ، ومَرَّةً تَصْرَعُهُ نَفْسُهُ فَيَتَّبِعُ هَوَاهَا فَيَنْعَشُهُ اللَّهُ فَيَنْتَعِشُ، وَيُقِيلُ اللَّهُ عَثْرَتَهُ فَيَتَذَكَّرُ وَيَفْزَعُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَخَافَةِ فَيَزْدَادُ بَصِيرَةً وَ مَعْرِفَةً لِمَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الْخَوْفِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف/٢٠١).

يَا جَابِرُ، اسْتَكْثِرْ لِنَفْسِكَ مِنَ اللَّهِ قَلِيلَ الرِّزْقِ تَخَلُّصاً إِلَى الشُّكْرِ، وَاسْتَقْلِلْ مِنْ نَفْسِكَ كَثِيرَ الطَّاعَةِ لِلَّهِ إِزْرَاءً عَلَى النَّفْسِ وَ تَعَرُّضاً لِلْعَفْوِ، وَ ادْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ حَاضِرَ الشَّرِّ بِحَاضِرِ الْعِلْمِ، وَاسْتَعْمِلْ حَاضِرَ الْعِلْمِ بِخَالِصِ الْعَمَلِ، وَتَحَرَّزْ فِي خَالِصِ الْعَمَلِ مِنْ عَظِيمِ الْغَفْلَةِ بِشِدَّةِ التَّيَقُّظِ، وَاسْتَجْلِبْ شِدَّةَ التَّيَقُّظِ بِصِدْقِ الْخَوْفِ، وَاحْذَرْ خَفِيَّ التَّزْيِينِ بِحَاضِرِ الْحَيَاةِ، وَتَوَقَّ مُجَازَفَةَ الْهَوَى بِدَلَالَةِ الْعَقْلِ، وَقِفْ عِنْدَ غَلَبَةِ الْهَوَى بِاسْتِرْشَاءِ الْعِلْمِ، وَاسْتَبْقِ خَالِصَ الْأَعْمَالِ لِيَوْمِ الْجَزَاءِ، وَانْزِلْ سَاحَةَ الْقَنَاعَةِ بِاتِّقَاءِ الْحِرْصِ، وَادْفَعْ عَظِيمَ الْحِرْصِ بِإِيثَارِ الْقَنَاعَةِ، وَاسْتَجْلِبْ حَلَاوَةَ الزَّهَادَةِ بِقِصَرِ الْأَمَلِ، وَاقْطَعْ أَسْبَابَ الطَّمَعِ بِبَرْدِ الْيَأْسِ، وَسُدَّ سَبِيلَ الْعُجْبِ بِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ، وَتَخَلَّصْ إِلَى رَاحَةِ النَّفْسِ بِصِحَّةِ التَّفْوِيضِ، وَاطْلُبْ رَاحَةَ الْبَدَنِ بِإِجْمَامِ الْقَلْبِ، وَتَخَلَّصْ إِلَى إِجْمَامِ الْقَلْبِ بِقِلَّةِ الْخَطَإِ، وَتَعَرَّضْ لِرِقَّةِ الْقَلْبِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاسْتَجْلِبْ نُورَ الْقَلْبِ بِدَوَامِ الْحُزْنِ، وَتَحَرَّزْ مِنْ إِبْلِيسَ بِالْخَوْفِ الصَّادِقِ.

وَإِيَّاكَ وَالرَّجَاءَ الْكَاذِبَ فَإِنَّهُ يُوقِعُكَ فِي الْخَوْفِ الصَّادِقِ، وَتَزَيَّنْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالصِّدْقِ فِي الْأَعْمَالِ، وَتَحَبَّبْ إِلَيْهِ بِتَعْجِيلِ الِانْتِقَالِ.

وَإِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ فَإِنَّهُ بَحْرٌ يَغْرَقُ فِيهِ الْهَلْكَى.

وَإِيَّاكَ وَالْغَفْلَةَ فَفِيهَا تَكُونُ قَسَاوَةُ الْقَلْبِ.

وَإِيَّاكَ وَالتَّوَانِيَ فِيمَا لَا عُذْرَ لَكَ فِيهِ فَإِلَيْهِ يَلْجَأُ النَّادِمُونَ.

وَاسْتَرْجِعْ سَالِفَ الذُّنُوبِ بِشِدَّةِ النَّدَمِ وَكَثْرَةِ الِاسْتِغْفَارِ.

وَتَعَرَّضْ لِلرَّحْمَةِ وَعَفْوِ اللَّهِ بِحُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ، وَاسْتَعِنْ عَلَى حُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ بِخَالِصِ الدُّعَاءِ وَالْمُنَاجَاةِ فِي الظُّلَمِ.

وَتَخَلَّصْ إِلَى عَظِيمِ الشُّكْرِ بِاسْتِكْثَارِ قَلِيلِ الرِّزْقِ وَاسْتِقْلَالِ كَثِيرِ الطَّاعَةِ.

وَاسْتَجْلِبْ زِيَادَةَ النِّعَمِ بِعَظِيمِ الشُّكْرِ، وَ تَوَسَّلْ إِلَى عَظِيمِ الشُّكْرِ بِخَوْفِ زَوَالِ النِّعَمِ،

وَاطْلُبْ بَقَاءَ الْعِزِّ بِإِمَاتَةِ الطَّمَعِ، وَادْفَعْ ذُلَّ الطَّمَعِ بِعِزِّ الْيَأْسِ، وَاسْتَجْلِبْ عِزَّ الْيَأْسِ بِبُعْدِ الْهِمَّةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا عِلْمَ كَطَلَبِ السَّلَامَةِ، وَلَا سَلَامَةَ كَسَلَامَةِ الْقَلْبِ، وَلَا عَقْلَ كَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَلَا خَوْفَ كَخَوْفِ حَاجِزٍ، وَلَا رَجَاءَ كَرَجَاءِ مُعِينٍ وَلَا فَقْرَ كَفَقْرِ الْقَلْبِ، وَلَا غِنَى كَغِنَى النَّفْسِ، وَلَا قُوَّةَ كَغَلَبَةِ الْهَوَى، وَلَا نُورَ كَنُورِ الْيَقِينِ، وَلَا يَقِينَ كَاسْتِصْغَارِكَ الدُّنْيَا، وَلَا مَعْرِفَةَ كَمَعْرِفَتِكَ بِنَفْسِكَ، وَلَا نِعْمَةَ كَالْعَافِيَةِ، وَلَا عَافِيَةَ كَمُسَاعَدَةِ التَّوْفِيقِ، وَلَا شَرَفَ كَبُعْدِ الْهِمَّةِ، وَلَا زُهْدَ كَقِصَرِ الْأَمَلِ، وَلَا حِرْصَ كَالْمُنَافَسَةِ فِي الدَّرَجَاتِ، وَلَا عَدْلَ كَالْإِنْصَافِ، وَلَا تَعَدِّيَ كَالْجَوْرِ، وَلَا جَوْرَ كَمُوَافَقَةِ الْهَوَى، وَلَا طَاعَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَلَا خَوْفَ كَالْحُزْنِ، وَلَا مُصِيبَةَ كَعَدَمِ الْعَقْلِ، وَلَا عَدَمَ عَقْلٍ كَقِلَّةِ الْيَقِينِ، وَلَا قِلَّةَ يَقِينٍ كَفَقْدِ الْخَوْفِ، وَلَا فَقْدَ خَوْفٍ كَقِلَّةِ الْحُزْنِ عَلَى فَقْدِ الْخَوْفِ، وَلَا مُصِيبَةَ كَاسْتِهَانَتِكَ بِالذَّنْبِ وَرِضَاكَ بِالْحَالَةِ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا، وَلَا فَضِيلَةَ كَالْجِهَادِ، وَلَا جِهَادَ كَمُجَاهَدَةِ الْهَوَى، وَلَا قُوَّةَ كَرَدِّ الْغَضَبِ، وَلَا مَعْصِيَةَ كَحُبِّ الْبَقَاءِ، وَلَا ذُلَّ كَذُلِّ الطَّمَعِ، وَإِيَّاكَ وَالتَّفْرِيطَ عِنْدَ إِمْكَانِ الْفُرْصَةِ فَإِنَّهُ مَيْدَانٌ يَجْرِي لِأَهْلِهِ بِالْخُسْرَانِ))[1].

وحدةُ النصِّ في أدبِ الإمام الباقر عليه السلام:

لقد اتّجهت عناية الباحثين في مجال الدلالة والدراسة الجماليّة نحو دراسة النصّ بوصفه وحدة واحدة، فدرسوا العناصر التي من شأنها أن تقوم هذه الوحدة وتجعلها أمراً ممكناً ليتسنّى لهم التفريق بين ما هو نصّ وما هو ليس بنصٍّ، فهي((تضفي وسائل عدّة التماسك على النصّ، وتختلف الوسائل المستخدمة، بل وطرق استخدامها اختلافاً كبيرا))[2]، فليس كلُّ نصٍّ يُكتب يصدق عليه نصّاً أدبيّاً، بل لابدّ أن يكون منسجماً متماسكاً.

إنّ هذا الانسجام والتماسك قد يتحقّق وفق وسائل البنية السطحيّة كالضمائر وأدوات العطف وأسماء الإشارة وغيرها، أو على أساس البنية العميقة للنصّ، وذلك بإتحاد المضامين أو كون بعضها يؤدي إلى بعضها الآخر، أو يتوافق معها من حيث المضمون، متجاوزاً حدود المكان الذي حلّ فيه النصّ، وهذا ما يطلق عليه الانسجام الداخلي أو وحدة النصّ، وممّا لاشكّ فيه أنّ النصوص النثريّة لدى الإمام الباقر عليه السلام، وعلى الرغم من اختلاف موضوعاتها ومضامينها من جهة، وخطابها الإقناعي من جهة أخرى، إلاّ إنّها تُعدُّ وحدة واحدة منسجمة أيّما انسجام، فكأنّه يأخذ بعضه بحجر بعض، ويؤيّد بعضه بعضا،

فلم نرَ فيه اختلافاً ولا تعارضاً، وما ذلك إلاّ لوحدة جهة الصدور العالية لدى الإمام عليه السلام، إذ أنّ صنعة الأديب تتطلّب منه ذلك الفنّ والرصانة والتناسق، فكيف إذا كان الصانع الأديب هو ابن خير مَن نطق بالضّاد، وهذا التناسق والانسجام بين النصوص النثريّة على اختلاف موضوعاتها وتنوّع متعلّقاتها إنّما يدلّ على اهتمام الإمام عليه السلام بجماليّة النصّ الصادر، ورعيل الأدباء يشهدون بسحر عباراته، وروعة جمله، ولطافة أسلوبه.

إنّ هذا الانسجام من العلاقات الترابطيّة ذات البعد الأفقي بين وحدات النصّ، ونقصد به تلك العلاقات بين الجمل والعبارات الجارية على لسان الإمام عليه السلام في وصيّته المرتجلة لجابر الجعفي، أو ضمن المحاورات الواقعة بينه وبين تلميذه جابر الجعفي، فهذا المحور يدرس التعاقب وأثره في تكوين الوحدة والانسجام النصيّ، ويُعدّ هذا القسم هو الأشهر في الدراسات الأدبيّة، وكان يسمّى بعلم المناسبة[٣]، حتّى عدّه الرازي وجهاً من وجوه الإعجاز البلاغي[٤]، فقد كان لوصيّة الإمام عليه السلام صورة واضحة في تحقيق هذا البعد، إذ أنّه جاء منسجماً في سياقاته، مؤدّياً مقدماته إلى نتائجه، ومن ذلك قوله عليه السلام في الولاية: ((وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا تَكُونُ لَنَا وَلِيّاً حَتَّى لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَ قَالُوا إِنَّكَ رَجُلُ سَوْءٍ لَمْ يَحْزُنْكَ ذَلِكَ، وَ لَوْ قَالُوا إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ لَمْ يَسُرَّكَ ذَلِكَ، وَلَكِنِ اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ...))، فلو أخذنا مثالاً كلمة (وليّاً)، فهي كناية عن الموالاة والمتابعة والمشايعة، وربما يكون لها عدّة معانٍ تؤخذ بعين الاعتبار، ولكنّها حينما امتزجت مع غيرها في تركيب جارٍ في سياق معين في وحدة النصّ، دلّت على الاسم المكنى عنه، فلفظة(وليّاً): كناية عن الشخص الموالي لله ولرسوله ولأهل البيت، والإمام عليه السلام لم يذكر اسم الشخص، تنزيهاً، وتكريماً لذكر اسمه، فهنا نجد اتّساق النصّ ووحدته، بل أصبح ملتئماً لعود الضمير على الموالي بصيغة المخاطب (الكاف)، وكون كلمة الولي أصبحت مدار النصّ، وبها تتحقّق الغاية المنشودة كأنّ ربط النصّ بها يدلّ على مدى تعلّق الموالي بالإمام الحقيقيّ.

ويبدو أن الإمام عليه السلام كان بعفويّته الثقافيّة يباشر عمله الإبداعي الفوري، فيأتي النصُّ المرتجلُ متماسكاً في وحدة النصّ مثل النصّ المكتوب، فهو في غاية الإتقان والإبداع، فجريان وصيّته على هذا النحو الباهر في طوله وقصره هو دليل على الفعاليّة الخارقة لعقل مبدع موهوب هو السيد المؤكد في عالم العقول ولا يمكن أن تتوفّر تلك الخصوصيّة لقوّة النصّ في المخاطبة الارتجاليّة وفي الكتابة لشخص آخر غير الإمام الباقر عليه السلام.

المبحث الأوّل

جماليّة اللفظة والعبارة

إنّ كلّ مادّة ترتقي إلى البلاغة والفصاحة إنّما هي شكل جمالي، ومن ثمّ فإنّ الجمال هو التعبير الجمالي الناجح، فالجمال وقع في الإبداع البلاغي ليصل بالكلام العربي إلى مرتبة البيان الناصع المؤثّر السّاحر الذي يثير النفس والفكر إذا سمعه البلغاء؛ كما حدث مع الرّسول الأعظم حين استمع إلى عمرو بن الأهتم وأعجب بقوله فقال: ((إنّ من البيان لسحراً))[٥].

تتعلّق الجماليّة بالتجربة الجماليّة[٦]، ذاتها من جهة الشكل والمضمونُ؛ وتماثل ما أطلق عليه بـ (المنهج الجمالي) الذي يرتكز في أساسه على نظرية (علم الجمال: الاستطيقا)؛ ويحكم بها الناقد أو البلاغي على الأشياء سواء كانت طبيعيّة أم مصنوعة، أم كانت إبداعاً فنيّاً أو لغويّاً أو أدبيّاً بأحكام جماليّة[٧]، فالأسلوب الجمالي مهما قيل فيه قديماً وحديثاً هو بنية لغويّة دلاليّة مباشرة وغير مباشرة يحمل وظائف الإثارة والإمتاع في الوقت الذي يحمل وظيفة التوصيل والإبلاغ والإفادة بنقل الأفكار، ولهذا فوظيفة الأسلوب الجمالي ذات وجوه متعدّدة يجمع بين عناصر الأدب والفنّ واللّغة والحياة في بنية فنيّة مثيرة للعاطفة والوجدان والعقل باعتبار ما تكتنزه من أسرار موحية في الشّكل والمضمون، فالإحساس بالجمال استجابة روحيّة وموضوعيّة لعناصر الجمال في الأدب[٨]، فاللّغة والصورة والخيال والإيقاع أدوات يتجسّد فيها مضمون ما، وينطوي على وظائف متنوّعة وأهداف كثيرة؛ ممّا يحقّق للشكل البلاغي الجمالي فلسفة تفسير الوجود والكون والمصير، ولعلّ هذا كلّه ما نتمثّله في جماليّة اللفظ والعبارة في حدودهما ومفهومهما وآلياتهما ودلالتهما الحقيقيّة والمجازيّة.

السّمات الدلاليّة في وصيّة الإمام الباقر عليه السلام:

التّكرار: هو ((أن يأتي المتكلّم بلفظٍ ثمّ يعيده بعينه، سواء أكان اللفظ متّفق المعنى أم مختلفاً أو يأتي بمعنى ثمّ يعيده))[٩].

إنّ التّكرار اللفظي في الوصيّة اتّخذ أشكالاً ومستويات متعدّدة نذكرها باختصار، وهي:

أ-: التّكرار على مستوى الحرف: تميّزت اللّغة العربيّة بأنّها من أكثر اللّغات انسجاماً مع التعبير الفنيّ وإثارةً للأحاسيس الفنيّة والإنسانيّة، وتلاؤماً مع المعايير الجماليّة،

ويظهر ذلك في تركيب حروفها ومفرداتها وعباراتها، فلاشكّ أنّها لغة التّصوير الفنّي، فتكرار الحرف في النصّ الفنيّ واحدٌ من أهمّ مزايا ذلك الانسجام؛ فإنّ عودة النقر موسيقيّاً على الوتر تُحدثُ تجاوباً مع سابقتها، لتشكّل قطعة موسيقيّة متكاملة يستلذّ بها السّمع وتطرب لها الأذن، وتتآلف معها الروح، وإنّ عودة الحرف المكرّر في اللفظة أو في العبارة يحَقّق تماماً ما تحقّقُه النقرة، فيُكسب الأذن اُنساً والنصّ جمالاً، فمن ذلك ما جاء في النصوص النثريّة في وصيّة الإمام عليه السلام، وقد أظهر بعض مضامين القرآن الكريم التي تؤدّي الى النجاح والظفر، وتأمر المرء بالتحلّي بالآداب، حيث يقول: ((وفَكِّرْ فيمَا قِيلَ فيكَ، فَإِنْ عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا قِيلَ فِيكَ فَسُقُوطُكَ مِنْ عَيْنِ اللَّه جَلَّ وَ عَزَّ عِنْدَ غَضَبِكَ مِنَ الْحَقِّ أَعْظَمُ عَلَيْكَ مُصِيبَةً مِمَّا خِفْتَ مِنْ سُقُوطِكَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى خِلَافِ مَا قِيلَ فِيكَ فَثَوَابٌ اكْتَسَبْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْعَبَ بَدَنُكَ))، فهنا وردت حروف متكرّرة ظهر فيها الانسجام والتناغم الصوتي الذي يؤدّي إلى إيقاع لطيف، فقد تكرّر حرف الميم أحد عشر مرّة، والنون ثلاثة عشر مرّة، والرّاء ثلاث مرّات، والباء ست مرّات، والياء إثنا عشر مرّة، والألف ستة عشر مرّة، والسين خمس مرّات، والكاف أحد عشر مرّة.

لقد أظهر الإمام عليه السلام في تكرار هذه الحروف القيمة الموسيقيّة والدلاليّة، فتكراره الحروف أثار في النصّ الحسّ الصوتي جسّدَته أصوات الغنّة (الميم والنون والتنوين) التي وردت أكثر من ستّ وعشرين مرّة في هذا النّصّ، ممّا يثير رغبة المتلقّي في التواصل ومتابعة المعنى مع الالتذاذ السمعي الذي يشعر به. فضلاً عن ذلك فإنّ تكرار (الأصوات الذلقيّة) التي تتميّز بخفّتها وسهولة النطق بها بشكل كبير أضاف نوعاً من التناغم والانسجام بين المتكلّم والمتلقّي، وكذلك القيمة الدلاليّة في تعريف المرء نفسه بصورة تمثيليّة بعيداً عن الاستعارة والتشبيه ليتحقّق الانسجام بين الموضوع وطبيعة الصورة الفنيّة.

إنّ هذا النّصّ على قصره يحمل المؤثّرات الصّوتيّة الدلاليّة بما يناسب الموضوع، فنشاهد السّكينة واللّغة الشاعرة والنبرة الهادئة تطغى على جوّ النصّ، فالغنّة وما تحمله من لذّة في السمع، والاصوات الذلقيّة وسهولتها في النطق، قد أدّى إلى خلق نوع من التوازن والتناغم ولفت نظر المتلقّي إلى المدلول عن طريق الإيقاع الصوتي ممّا أدّى إلى تعزيز ظاهرة السّطوع والوضوح المتمثّلة في القرآن[١٠].

نلاحظ كذلك جماليّة تكرار حرف اللّام صوتيّاً ودلالياً في وصيّة الإمام في قوله: ((وَتَخَلَّصْ إِلَى عَظِيمِ الشُّكْرِ بِاسْتِكْثَارِ قَلِيلِ الرِّزْقِ وَ اسْتِقْلَالِ كَثِيرِ الطَّاعَةِ، وَاسْتَجْلِبْ زِيَادَةَ النِّعَمِ بِعَظِيمِ الشُّكْرِ، وَ تَوَسَّلْ إِلَى عَظِيمِ الشُّكْرِ بِخَوْفِ زَوَالِ النِّعَمِ، وَ اطْلُبْ بَقَاءَ الْعِزِّ بِإِمَاتَةِ الطَّمَعِ، وَادْفَعْ ذُلَّ الطَّمَعِ بِعِزِّ الْيَأْسِ، وَاسْتَجْلِبْ عِزَّ الْيَأْسِ بِبُعْدِ الْهِمَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا عِلْمَ كَطَلَبِ السَّلَامَةِ، وَ لَا سَلَامَةَ كَسَلَامَةِ الْقَلْبِ، وَ لَا عَقْلَ كَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَ لَا خَوْفَ كَخَوْفٍ حَاجِزٍ))، فهنا تكرّر حرف اللّام أكثر من خمس وثلاثين مرّة، وهو حرف ذلقي من الحروف المجهورة يحتاج إلى جهد صوتي، وشدّة معاناة في نطقها ليتناسب ذلك، فتلصق اللسان بالفكّ الأعلى، ثمّ ترسله، فهنا إشارة للخطر المحدق بالنّاس الذي يهدّدهم من قِبل نكران الشكر لله(جل جلاله)، وتغلغل الطمع في نفوسهم، فنشعر بالألم والحزن ينساب مع صوت اللّام الخارج من نفس الإمام عليه السلام؛ ليدلّ على طلب السّلامة للقلب من الأهواء المقيتة، وكذلك عمق تأثّرها بالمرء، حيث أمزج قوله باللّام، لشدّة وقعه في الأذن، وفي الذّهن، وفي العقل، فتكرار حرف اللّام أسهم في الكشف عن الدلالات الموضوعيّة والفنيّة للنّص.

ب: التّكرار على مستوى الكلمة: وهو تكرار لفظة بعينها، وهذا النوع من أوضح أنواع التّكرار ويُقصد به ((استخدام عبارات محدّدة تتكرّر في النصّ))[11] ممّا يؤدّي إلى خلق إيقاع داخلي في النّصّ يُسهم في تقوية المعنى، وعلى هذا الأساس فقد اكتسبت اللفظة المكرّرة أهميّة كبيرة بما تضفيه من معنى سياقي لا يتحقّق إلاّ بها، وهذا النوع من التّكرار له بُعدان أيضاً(صوتي ودلالي)، فمن تكرار الكلمة في وصيّة الإمام عليه السلام هو تكرار الفعل (استجلب) في قوله: ((، وَاسْتَجْلِبْ شِدَّةَ التَّيَقُّظِ بِصِدْقِ الْخَوْفِ...، وَاسْتَجْلِبْ حَلَاوَةَ الزَّهَادَةِ بِقِصَرِ الْأَمَلِ...، وَاسْتَجْلِبْ نُورَ الْقَلْبِ بِدَوَامِ الْحُزْنِ))، فقد تكرّر الفعل (استجلب) ثلاث مرّات في النّصّ، وهذا التّكرار جلب إيقاعاً وبناءً هندسيّاً، فعند اثبات فعل(استجلب) من قبل المتكلّم يجلب المتلقي، ويستحضر ذهنه لما سوف يقوله المتكلّم، فإذا أضاف إلى القول الترديد والعودة - وكلّ ذلك لإبراز أهميّة ما يُقال - إنشدَّ المتلقّي أكثر، فالإمام عليه السلام يُثبت ويُؤكّد وصيّته، ويُعيد الكلمة ويُكرّرها على أسماع جابر الجعفي حتى لا يبقى له عذر فيما يقول، والتّكرار بارز المعنى في قوله(استجلب)الذي يحمل معنى الحث الطلب.

ومن مواضع تكرار الكلمة أيضاً قوله: ((وَإِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ، فَإِنَّهُ بَحْرٌ يَغْرَقُ فِيهِ الْهَلْكَى، وَإِيَّاكَ وَالْغَفْلَةَ فَفِيهَا تَكُونُ قَسَاوَةُ الْقَلْبِ، وَإِيَّاكَ وَالتَّوَانِيَ فِيمَا لَا عُذْرَ لَكَ فِيهِ فَإِلَيْهِ يَلْجَأُ النَّادِمُونَ))، وهنا لفظة(إيّاك) تكرّرت ثلاث مرّات، فحقّقت جرساً ونغمةً حزينةً وما تضمّنته من أحرف جوف، فكأنّ الآهات والحزن والحسرات تخرج من الأعماق محرقة، فحروف اللفظة وأصواتها جاءت منسجمةً ودلالتها، فلفظة إيّاك تحمل التحذير من الهلكة، وتكرار الكلمة هذه يُظهر شِدَّة التأثّر والحزن والخوف إذ إنّ الإمام عليه السلام يخشى التسويف، والغفلة، والتواني.

ج: التّكرار على مستوى الجملة: تكرار الجملة في النّصوص النثريّة لدى الإمام الباقر عليه السلام تحمل أيضاً بُعدين(صوتي ودلالي)، فمن ذلك قوله: ((اسْتَكْثِرْ لِنَفْسِكَ مِنَ اللَّهِ قَلِيلَ الرِّزْقِ تَخَلُّصاً إِلَى الشُّكْرِ، وَاسْتَقْلِلْ مِنْ نَفْسِكَ كَثِيرَ الطَّاعَةِ... وَتَخَلَّصْ إِلَى عَظِيمِ الشُّكْرِ بِاسْتِكْثَارِ قَلِيلِ الرِّزْقِ وَ اسْتِقْلَالِ كَثِيرِ الطَّاعَةِ))، نرى في هذا المقطع تكرّر عبارة (قليل الرزق) و(كثير الطّاعة) بصورة تُظهر قصديّة الدّاعي لذلك، إذ خلق هذا التّكرار نغماً موسيقيّاً وجوّاً روحيّاً ممتعاً في ترديده طلب الطّاعة، فيتحوّل من خلاله إلى الأبعاد الدلاليّة لهذا التّكرار، فكلّ طاعة تحمل دلالة ومعنى يختلف عمّا تحمله الأخرى، فالتّكرار يجذب المتلقّين إلى المضامين المختلفة.

وكذلك قوله: ((وَ تَعَرَّضْ لِلرَّحْمَةِ وَ عَفْوِ اللَّهِ بِحُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ، وَ اسْتَعِنْ عَلَى حُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ بِخَالِصِ الدُّعَاءِ))، فهنا يشكّل تكرار الجملة نقلة فنيّة من الذّات إلى الموضوع هذا من جانب، ومن جانب آخر يشكّل أداة وصل وتلاحم بين الموضوعات، وقد تنوّعت نصوص الإمام عليه السلام بحسب المناسبة، فقد استعمل عليه السلام التّكرار في(حُسن المراجعة) لزيادة النغم، وتقوية الجرس، فضلا عن التقوية والتأكيد للمعنى الذي يتأتّى بعده، وقد اقتصرنا على هذه النصوص النثريّة، لضيق المقام.

السجع: هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير وأفضله ما تساوت فقره، والفاصلة هي الكلمة الأخيرة من كلِّ فقرة، وتسكن الفاصلة دائما في النّثر للوقف(١٢).

إنّ السّجع هو أحد صور البلاغة البالغة الحمال في النّصوص النثريّة لدى الإمام الباقر عليه السلام، فالتسجيع في كلامه هو بدون شكٍّ شاهد على مدى قدرته العجيبة النادرة في

خلق الفنّ العالي للتلفّظ، ومن علامات الأديب الناجح الذي يستطيع ان يزيّن كلامه بالزينة اللفظيّة بلا عناء ومشقّة، وبغير ان يتكلف ويتأنّق كي يقع جرسه في الاذن موقعاً ليّناً لطيفاً، ويجري على الألسنة هيّنا.

إنّ أدب الإمام عليه السلام يغلب عليه طابع السّجع، فمن ذلك قوله: ((وَتَزَيَّنْ لِلَّه عَزَّ وَجَلَّ بِالصِّدْقِ فِي الْأَعْمَالِ، وَ تَحَبَّبْ إِلَيْه بِتَعْجِيلِ الِانْتِقَالِ))، وقوله: ((فَإِنْ كُنْتَ سَالِكاً سَبِيلَهُ زَاهِداً فِي تَزْهِيدِه رَاغِباً فِي تَرْغِيبِه خَائِفاً مِنْ تَخْوِيفِه))، وهنا نشاهد السّجع غير المتكلّف في الصياغة الذي أتى على السليقة والبديهة، وما يؤدّيه هذا السّجع من إيقاع منتظم، وهو سمة مميّزة للنّصوص النثريّة للوصيّة.

الإيقاع: ((لفظٌ موضوعٌ للدلالة على كلٍّ كلام شريف المعنى نبيل المبنى محكم اللفظ يضبطه إيقاع متناسب الأجزاء وينظمه نغم ظاهر للسّمع مفرط الإحكام والدقّة في تنزيل الألفاظ وجرس حروفها في مواضعها منه، لينبعث عن جميعها لحنٌ تتجاوب أصداؤه من ظاهر لفظه ومن باطن معانيه))[١٣].

لقد انماز الإيقاع في النّصوص النّثريّة لدى الإمام عليه السلام عن غيره، فهو إيقاع يجذب النّفوس، فمثلاً قوله:((وَ تَحَرَّزْ مِنْ إِبْلِيسَ بِالْخَوْفِ الصَّادِقِ، وَإِيَّاكَ وَ الرَّجَاءَ الْكَاذِبَ فَإِنَّهُ يُوقِعُكَ فِي الْخَوْفِ الصَّادِقِ))، فهذا النّصُّ يشتمل على عناصر مختلفةٍ والتي ينتج عنها إيقاع متّسقُ وموسيقى رائعة، منها: إيقاع التجمّعات الصّوتيّة من خلال عدة حروف منها الألف في كلمات (الصّادق، الكاذب)، وهذه الكلمات قد ختمت بالحروف المجهورة الشّديدة والرّخوة تشبه حركة موج البحر العالية تارةً والخافضة أخرى ولا شكَّ أن السّجع بين الكلمات من العناصر البنّاءة للإيقاع في النّصِّ، والحروف الهوائيّة أي حروف المدّ تؤدّي وظيفةً فنيّة صوتيّة أو وظيفة موسيقيّة، فإنّ هذه الحروف هي التي تفسح المجال لتنوّع النّغمة الموسيقيّة للكلمة الواحدة أو الجملة الواحدة لسعة إمكانياتها الصوتيّة ومرونتها، وقد اكتسبت هذه الكلمات في هذا المقطع القصير جرساً موسيقيّاً خاصّاً، ويأتي ذلك من تشابه بعض الكلمات في الوزن وتماثل بعضها الآخر، ومن التّساوي بين الفقرتين في عدد الكلمات(الخوف الصادق، الرجاء الكاذب) أو في أوزانها وممّا لا شكَّ فيه أنّ استخدام حرف المدّ(الألف)في المفردات قد أضفى على هذا المقطع إيقاعاً ملحوظاً وأحدث رنيناً

يتلاءم مع سياق الكلام، فهنا نرى الوزن والإيقاع قد التقيا في هذا المقطع.

الجناس: هو((بأنّه اتّفاق اللفظ، واختلاف المعنى))[١٤]، فالجناس: اتّحاد الطرفين وتشابهما في الصّورة، والتلفّظ مع اختلاف المعنى فيهما، وهو ينقسم إلى نوعين: لفظي ومعنوي، ويُعتبر الجناس من الألوان البديعيّة التي لها تأثير بليغ، تجذب السّامع وتحدث في نفسه ميلاً إلى الإصغاء والطلبة بنغمته العذبة وتجعل العبارة على الأذن سهلة ومستساغة، ولو تأمّلنا في النّصوص النثريّة في وصيّة الإمام عليه السلام وجدنا هذا اللون البديعي فيها، فلو تابعنا متابعة خاطفة إلى الجناس اللفظي في بستان النّتاج الإدبي عند الإمام عليه السلام لوجدناه يمتاز بجودة في السّبك وفي اختيار الألفاظ وجرس في الإيقاع، فقد استعمل الإمام عليه السلام المفردات الأكثر إيحائيّة ودقّة في إقناع المتلقّي من خلال أسلوب بلاغي، وكذلك امتاز أدبه بخصائص أسلوبيّة رائعة جعلته يعطي جانباً من المعارف والقيم الأخلاقيّة التي قلّما نجدها في أيّ أدب، ثم براعته الأسلوبيّة في انتقاء الألفاظ، والتراكيب الدالة على أحقيّته وقدرته البلاغيّة، ويُعدّ الجناس من((المنبهات الأسلوبيّة التي ترتكز على القيم الصوتيّة الخالصة والتي تعزّز إيقاعات معيّنة ذات تناسب صوتي أو دلالي، فالجناس يولّد إيقاعاً داخليّاً في النصّ وللإيقاع أثره في تأكيد معنى النص))[١٥]، وهو أنواع: التّام، النّاقص، المُذَيَّل، المُطرف، الاشتقاق، المضارع، اللّاحق.

فمثلاً نأخذ مقتطفات من الجناس غير التّام، والجناس غير التّام (النّاقص) هو جناس لا يوافق فيه اللفظان المتجانسان في نوع الحروف وشكلها وعددها وترتيبها توافقا تامّاً بل يختلفان في واحد أو أكثر من واحد من هذه الأمور، فمن قوله عليه السلام:((وَإِنْ مُدحْتَ فَلَا تَفْرَحْ، وَإِنْ ذُممْتَ فَلَا تَجْزَعْ))، فالاختلاف بين الحرفين (ر) و(ز) وهما بعيدا المخرجين الأمر الذي يزيد موسيقى العبارة ويُسمى أيضاً هذا النّوع من الجناس جناساً لاحقاً، وأيضاً قوله: ((إِنْ ظُلِمْتَ فَلَا تَظْلِمْ، وَإِنْ خَانُوكَ فَلَا تَخُنْ))، فهنا جناس ناقص.

حُسن الابتداء والختام:

حُسن الابتداء(براعةُ المطلَع): ((هو أنْ يجعلَ أولَ الكلام رقيقاً سهلاً، واضحَ المعاني، مستقلًّا عمّا بعده؛ مناسباً للمقام؛ بحيثُ يجذبُ السامعَ إلى الإصغاءِ بكليته؛ لأنّه أوّلُ ما يقرعُ السّمعَ؛ وبه يعرفُ ممّا عنده))[١٦]، وأيضاً:((إنَّ حُسنَ الافتتاحِ داعيةُ الانشراحِ؛ ومطيّةُ النّجاحِ))[١٧].

وتزدادُ براعةُ المطلَعِ حُسناً، إذا دلَّتْ على المقصودِ بإشارةٍ لطيفةٍ، وتسمَّى براعةَ استهلالٍ، وهو أن يأتيَ النّاظمُ أو النّاثرُ في ابتداءِ كلامه ببيتٍ أو قرينةٍ تدلُّ على مرادهِ في القصيدةِ أو الرّسالةِ أو معظم مرادهِ، وأمّا الختام، فهو الخروجُ والانتقالُ ممّا ابتُدئ به الكلامُ إلى الغرضِ المقصود(١٨).

لاشكَّ أنّ النّقاط البلاغيّة البديعيّة من حُسن ابتداء وختام وصيّة الإمام عليه السلام التي لم يسبقه مهرة البلغاء إليها أخرست الفصحاء بنصوصه البلاغيّة، وبكلامه المرتجل، واستطاع أن يُكسر شوكة الولوج في المعاصي، وكأنّه يتكلّم بصوت شجيٍّ، ليوصل فكرته لجابر الجعفي، وكلّ كلمة منه تلهب أحاسيس الحزن على المعصية، والفرحة على الطاعة، فخطابه أجّج نفوس المتلقّين، فقد أجاد بخطابه المرتجل بحُسن الابتداء والختام، حيث بدأ كلامه باغتنام الفرص، وانتهى بعدم التفريط بالفرص، والتذكير بمصير المفرطين بالفرص، فقد ابتدأ بقوله:((اغْتَنِمْ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ خَمْساً: إِنْ حَضَرْتَ لَمْ تُعْرَفْ، وَإِنْ غِبْتَ لَمْ تُفْتَقَدْ، وَإِنْ شَهِدْتَ لَمْ تُشَاوَرْ، وَإِنْ قُلْتَ لَمْ يُقْبَلْ قَوْلُكَ، وَإِنْ خَطَبْتَ لَمْ تُزَوَّجْ))، وختم بقوله: ((وَإِيَّاكَ وَالتَّفْرِيطَ عِنْدَ إِمْكَانِ الْفُرْصَةِ فَإِنَّهُ مَيْدَانٌ يَجْرِي لِأَهْلِهِ بِالْخُسْرَانِ))، ولابدّ لنا من الاشارة إلى حقيقة مهمّة، وهي أنّ الأدلّة العقليّة والاستدلالات المنطقيّة في مجال دعوة النّاس إلى الالتزام بالدين، والعودة إلى منهج الحقّ تحتاج إلى عامل يجذب الناس نحو الاستماع إلى هذه الأدلة، وأقوى عوامل الجذب هو: حُسن الابتداء والختام في كلامها الممزوج بالعاطفة، فقد حمل الإمام عليه السلام في طيّات كلامه صدقاً واستدلالاً منطقيّاً مقنعاً وتهديداً في حالة الإفراط.

المبحث الثاني

جمالية الأسلوب في الوصيّة

إنّ جمال الأسلوب في اصطلاح البلاغيين: هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قاصداً الإيضاح والتأثير، أو هو العبارات اللفظيّة المنسّقة لأداء المعاني(١٩)، فأسلوب الإمام عليه السلام النثري: هو طريقة انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه.

لقد انماز أسلوب الإمام عليه السلام بالمرونة والمطاوعة في التعبير بحيث لا يدانيه أسلوب من الأساليب، وهذه المرونة تجعله واسع الدلالة سعة المورد الذي تزدحم عليه الوفود ثم تصدر عنه وهي ريّانة راضية، فأسلوبه يشفي قلوب العامّة ويكفي الخاصّة، فظاهره القريب يهدي

الجماهير وسواد الناس ويملأ فراغ نفوسهم بالترغيب والترهيب والجمال الأخاذ في تعابيره ومشاهده، وباطنه العميق يشبع نهم الفلاسفة بالمزيد من الحكمة والفكرة، يحل العقد الكبرى عندهم من مبدأ التوحيد والنبوّة والإمامة ومنتهاه في إظهار المظلوميّة والاعتماد على نظم الله سبحانه وجزائه.

لاشكَّ أنّ هذه المرونة من أسباب خلود وصيّة الإمام عليه السلام، فإنّ الأساليب العربيّة طوال أربعة عشر قرناً قد عراها كثير من التغيير والتلوين اللفظي والذهني، ومع ذلك فإنّ وصيّته بقيت خالدة بأسلوبها المتميّز وبخصائصها الفريدة تتجدّد مع العصور، وبقيت رائعة الأثر على ترامي الأجيال إلى هذه الأيام وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

برز في أسلوب الإمام عليه السلام سمة الطريقة التصويريّة للتعبير عن المعاني والأفكار التي يريد إيضاحها لجابر الجعفي، وسواء كانت معاني قلبيّة من نفاق وكذب، أو إثبات الصدق، أو الحصول على مرضاة الله عزّ وجلّ، أو التذكير بالمصير يوم القيامة، فمثلاً قولها: ((وَادْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ حَاضِرَ الشَّرِّ بِحَاضِرِ الْعِلْمِ، وَ اسْتَعْمِلْ حَاضِرَ الْعِلْمِ بِخَالِصِ الْعَمَلِ، وَ تَحَرَّزْ فِي خَالِصِ الْعَمَلِ مِنْ عَظِيمِ الْغَفْلَةِ بِشِدَّةِ التَّيَقُّظِ، وَ اسْتَجْلِبْ شِدَّةَ التَّيَقُّظِ بِصِدْقِ الْخَوْفِ، وَ احْذَرْ خَفِيَّ التَّزَيُّنِ بِحَاضِرِ الْحَيَاةِ، وَ تَوَقَّ مُجَازَفَةَ الْهَوَى بِدَلَالَةِ الْعَقْلِ، وَ قِفْ عِنْدَ غَلَبَةِ الْهَوَى بِاسْتِرْشَاءِ الْعِلْمِ، وَاسْتَبْقِ خَالِصَ الْأَعْمَالِ لِيَوْمِ الْجَزَاءِ، وَ انْزِلْ سَاحَةَ الْقَنَاعَةِ بِاتِّقَاءِ الْحِرْصِ، وَ ادْفَعْ عَظِيمَ الْحِرْصِ بِإِيثَارِ الْقَنَاعَةِ، وَ اسْتَجْلِبْ حَلَاوَةَ الزَّهَادَةِ بِقِصَرِ الْأَمَلِ))، فلو أردنا أن نتصوّر جمال هذا المعنى مجرّداً في الذهن يمكن أن نقول: إنّ الإمام يروم الوصول إلى الأخلاق الأصيلة التي يتمتّع بها المسلم الحقيقي، ولنمعن النظر في أسلوبه عليه السلام وهو يُصوّر لنا هذا المعنى في صورة جميلة، فتشترك مع الذهن حاسة النظر وملكة الخيال وشعور الجمال، والجمال الذي يرتسم في حركة الصورة حينما يتملاّها الخيال في إطار من الحقيقة في اتّباع الشيطان، فالتعبير هنا يحرّك مشاعر المتلقّي، وتنفعل نفسه مع الصورة التي نُقلت إليه، وهذا جمال رائع في الأسلوب له مدلولات ومعانٍ عديدة منها: الغفلة، ومجازفة الهوى، والحرص، فهنا تصوير رائع.

إنّ طريقة جمال الأسلوب في وصيّة الإمام عليه السلام المتميّزة في المُحاجة والاستدلال تُعتبر من أفانين القول في سياق إيصال النصيحة للمتلقّي، وتصحيح الانحراف، وكذلك الوعيد لمَن

ضلّ طريق الهداية، ولكن ما يميّز أسلوبه هو طريقة استدلاله بأشياءَ ذات حقيقة ضخمة توصل المرء للهدى، أو إلى الردى تتناسب مع الموضوع، ويستدلّ بالقرآن الكريم، حيث يقول: ((إنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنِيٌّ بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِه لِيَغْلِبَهَا عَلَى هَوَاهَا، فَمَرَّةً يُقِيمُ أَوَدَهَا وَ يُخَالِفُ هَوَاهَا فِي مَحَبَّةِ اللَّه، وَمَرَّةً تَصْرَعُهُ نَفْسُهُ فَيَتَّبِعُ هَوَاهَا فَيَنْعَشُهُ اللَّهُ فَيَنْتَعِشُ، وَيُقِيلُ اللَّهُ عَثْرَتَهُ فَيَتَذَكَّرُ وَيَفْزَعُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَخَافَةِ فَيَزْدَادُ بَصِيرَةً وَمَعْرِفَةً لِمَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الْخَوْفِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف/٢٠١))، فهذه الحقائق الضخمة التي أوردها الإمام عليه السلام من القرآن الكريم جعلت المتلقّي يستفيق من رقدته، وبهذه اللفتات المتتالية يريد أن يفتح عينه على أسرار التوبة الهائلة، كي يستعدّ لبناء أضخم عقيدة دينيّة وأوسع تصوّر لحقيقة الإيمان، فهذا الأسلوب يشدّ المتلقّين، ويجبرهم للنظر، والتفكير، واليقظة لما هم عليه من وهن التقوى.

إنّ جمالية الأسلوب في النصوص النّثريّة لدى الإمام عليه السلام تمتاز بخصائص عديدة منها: المسحة اللفظيّة اللطيفة الخلاّبة التي تتجلّى في جمال نظامها الصوتي وجمالها اللغوي، فالجمال الصوتي في اتّساق النصّ وائتلافه في حركاته وسكناته، فهو يسترعي الأسماع ويستهوي النّفوس، والجمال اللغوي في رصف حروف النصّ وترتيب كلماته على وجه دقيق محكم، بل وامتزجت فيه جزالة اللفظة، وشدّة العاطفة، فالإمام عليه السلام يُحاول الجمع في إرضاء العقل والعاطفة، مخاطبة العقل بالأدلّة، والقلب بالعاطفة، حيث يقول: ((وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَاعِلْمَ كَطَلَبِ السَّلَامَةِ، وَلَا سَلَامَةَ كَسَلَامَةِ الْقَلْبِ، وَلَاعَقَلَ كَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَلَاخَوْفَ كَخَوْفِ حَاجِزٍ، وَلَا رَجَاءَ كَرَجَاءِ مُعِينٍ وَلَا فَقْرَ كَفَقْرِ الْقَلْبِ، وَلَا غِنَى كَغِنَى النَّفْسِ، وَلَا قُوَّةَ كَغَلَبَةِ الْهَوَى، وَلَا نُورَ كَنُورِ الْيَقِينِ، وَلَا يَقِينَ كَاسْتِصْغَارِكَ الدُّنْيَا، وَلَا مَعْرِفَةَ كَمَعْرِفَتِكَ بِنَفْسِكَ، وَلَا نِعْمَةَ كَالْعَافِيَةِ، وَلَا عَافِيَةَ كَمُسَاعَدَةِ التَّوْفِيقِ، وَلَا شَرَفَ كَبُعْدِ الْهِمَّةِ، وَلَا زُهْدَ كَقِصَرِ الْأَمَلِ، وَلَا حِرْصَ كَالْمُنَافَسَةِ فِي الدَّرَجَاتِ، وَلَا عَدْلَ كَالْإِنْصَافِ، وَلَاتَعَدِّيَ كَالْجَوْرِ، وَلَاجَوْرَ كَمُوَافَقَةِ الْهَوَى،))، فهنا يخاطب الإمام عليه السلام العقل بالاستدلال، ويخاطب القلب باستعطاف جابر الجعفي بالسّلامة، وتذكيرهم بالنتائج.

ثمّة خاصيّة أخرى في جمال الأسلوب في وصيّة الإمام عليه السلام، وهو جودة سبك عباراتها، وكذلك إحكام سردها في إقناع جابر الجعفي والمتلقين للوصيّة، فنصوصها مترابطة الأجزاء،

متماسكة الكلمات، متنوّعة المقاصد تروم الوصول إلى الغاية المنشودة، فمثلاً:((وَاسْتَرْجِعْ سَالِفَ الذُّنُوبِ بِشِدَّةِ النَّدَمِ وَ كَثْرَةِ الاسْتِغْفَارِ، وَتَعَرَّضْ لِلرَّحْمَةِ وَ عَفْوِ اللَّهِ بِحُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ، وَاسْتَعِنْ عَلَى حُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ بِخَالِصِ الدُّعَاءِ وَ الْمُنَاجَاةِ فِي الظُّلَمِ، وَتَخَلَّصْ إِلَى عَظِيمِ الشُّكْرِ بِاسْتِكْثَارِ قَلِيلِ الرِّزْقِ وَ اسْتِقْلَالِ كَثِيرِ الطَّاعَةِ، وَاسْتَجْلِبْ زِيَادَةَ النِّعَمِ بِعَظِيمِ الشُّكْرِ، وَتَوَسَّلْ إِلَى عَظِيمِ الشُّكْرِ بِخَوْفِ زَوَالِ النِّعَمِ، وَاطْلُبْ بَقَاءَ الْعِزِّ بِإِمَاتَةِ الطَّمَعِ، وَادْفَعْ ذُلَّ الطَّمَعِ بِعِزِّ الْيَأْسِ، وَاسْتَجْلِبْ عِزَّ الْيَأْسِ بِبُعْدِ الْهِمَّةِ)) نجد السبك في العبارة، والإحكام في السرد والإنشاء، وتنوّع المقاصد، فأسلوب الوصيّة يحاول أن يُفيدَ السامع من حيث الدّقّة والوضوح والسّمو في المضمون، وكذلك أفاد من المنهج المنطقي في الكلام، والإحتجاج بالأدلّة، والاطراد في الإتيان بالأحكام الشرعيّة، وهذا ما أكسبها روعة واضحة، ممّا أدّى إلى أن تتحوّل هذه الوصيّة إلى عطاءات مثمرة وداعية للتأمّل.

إنّ من خصائص جمال الأسلوب أن يكون متوازناً في تركيب الكلام، فلو تأمّلنا الوصيّة نجدها قد التزمت بالبيان البليغ الذي يأخذ بمجامع القلوب، فقد كانت الغاية التأثير في المتلقّي، وإحداث الرغبة التي تعيدهم الى الوراء للالتزام بالآداب الإلهيّة، وليميزوا الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فامتازت بالأسلوب الواضح الذي يتدرج من حيث الإنفعال وإثارة المشاعر، فهي من حيث التركيب قد حقّقت هذا التوازن، وأعطت إيقاعاً هادئاً وجميلاً يجعل السامع يحسّ بمتعة التأثير إذ إنّ المعاني التي تضمّها الجمل تؤثّر في المتلقّي فيجتمع المعنى والإيقاع لصالح النصّ ومن أمثلة هذا التوازن قوله: ((وفَكِّرْ فِيمَا قِيلَ فِيكَ، فَإِنْ عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا قِيلَ فِيكَ فَسُقُوطُكَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ جَلَّ وَ عَزَّ عِنْدَ غَضَبِكَ مِنَ الْحَقِّ أَعْظَمُ عَلَيْكَ مُصِيبَةً مِمَّا خِفْتَ مِنْ سُقُوطِكَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَ إِنْ كُنْتَ عَلَى خِلَافِ مَا قِيلَ فِيكَ فَثَوَابٌ اكْتَسَبْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْعَبَ بَدَنُكَ)).

ويمكن القول: إنّ وصيّة الإمام الباقر عليه السلام هي ذروةٌ في الفصاحة وقمّةٌ البلاغة وآية في قوّة البيان وعدم الوهن والإنكسار، وقد اشتملت على خلاصة من الآداب الإسلاميّة النبيلة مثل: الشكر، والصدق، والتواضع، وغيرها، فهي دعوة إلى الالتزام بالدين القيّم الكامل الشامل لجوانب الإعتقاد والتمسّك بالدين والعناية بجوانب الحياة والإصلاح الإجتماعي من خلال التأكيد على منزلة الإيمان الحقيقي، فهي تشكّل رؤية واضحة لمراعاة

الأخلاق الإسلاميّة.

الخاتمة:

إنّ اهمَّ ما توصّل إليه البحث من النتائج والأساليب البلاغيّة المتنوّعة في النتاج الأدبي لدى الإمام الباقر عليه السلام هو الكشف عن أهميّة اللفظة والعبارة في إلقاء المعنى بالنظر الى المادّة والصياغة، وكذلك أهميّة الدراسة الجماليّة وأثرها في المتلقّي، فالتكرار في النصوص النثريّة أظهر رونقاً جميلاً للأدب العربي، فضلاً عن الإيقاع النفسي والاجتماعي فيه، وكذلك الكشف عن المستويات البلاغيّة لما تحوي النصوص النثريّة من جماليّات عالية، وخصوصا في استعمال السجع، والجناس، فضلاً عن استعمال المستوى الصوتي في توظيف الحروف الانفجاريّة والمجهورة. لقد استعمل الإمام عليه السلام ضمير المخاطب على الرغم من وجود المتلقّي(جابر الجعفي) أمامه؛ ليُعرب له عن عزوفه عن الدنيا، وزهده فيها، وإظهار الآداب الإسلاميّة، واستخدم الإمام عليه السلام أيضاً أسلوباً جميلاً للتكلّم في نماذج عديدة حوت على مضامين بلاغيّة عديدة، منها حسن الابتداء والختام، وأيضاً استخدم المحسنات اللفظيّة والمعنويّة على سواء وعدم الإشارة إلى أمثلة أخرى لا يدلُّ على وجود عدمها في كلام، وغلبت على نصوصه النثريّة في الوصيّة الجاذبية في الكلام، فقد نسج كلام كلماتها نسجاً لطيفاً، وإيقاعاً يقرع الأسماع كي يُوصل مراده ومبتغاه إلى جابر الجعفي، وكلِّ مَنْ يلتزم به ويتّبعه.

Abstract:-

The literary texts of Imam Al-Baqir (peace be upon him contain an aesthetic study of great appeal، including the linguistic and phonetic dimensions.

If we read some prose texts، we would realize that Imam al-Baqir (peace be upon him) used beauty in speech، image، and style without being burdened with the beauty of the image، as well as the aesthetics of the image in its prose. And the verbal fabrication، his words as the current water flowing in the course of the Lin is a beautiful، beautiful words full of meanings and compositions are clear، was not issued by the Imam peace be upon him cost and diligence of work never، but arose from talent and readiness for fluency and eloquence inspired by the Gh eloquence of his words from the Koran.

One of the findings of the article is: attention to the role of letters and their implications، and the use of artistic images، as well as semantic methods of repetition and carpeting and rhythm and good start and end in nice phrases.

Key words: Prose، aesthetic، Baqir peace be upon him

هوامش البحث

(١) المجلسي، بحار الأنوار:ج٧٥ص١٦٢.
(٢) لارسون، الترجمة القائمة على المعنى: ج ٢ص٢٥٨.
(٣) الزركشي،البرهان،ط١:ج٢ص٥٦.
(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب:ج٣ص٣٥.
(٥) السيوطي، الجامع الصغير من حديث البشير النذير: ج١، ص٢٣١.
(٦) جروم ستولنتز، النقد الفني: ص٣٠.
(٧) المصدر نفسه: ص٤٨.
(٨) تليمة، مداخل إلى علم الجمال: ص٢٠.
(٩) الحسيني، أساليب المعاني في القرآن: ص٤٩٥.
(١٠) الناصر، خطاب السيّدة الزهراء دراسة لغوية: ص١٠.
(١١) البستاني، البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الاسلامي: ص١٨.
(١٢) الجارم، علي، وأمين، مصطفى، البلاغة الواضحة: ص٦٥.
(١٣) ضيف، شوقي، فصول في الشعر ونقده: ص٢٨.
(١٤) ابن الأثير، ضياء الدين ، الجامع الكبير: ج١ص٢٦٧.
(١٥) عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني:١٣٧.
(١٦) العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: ج١ص٤٤٤.
(١٧) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه:ج١ص٧١.
(١٨) العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: ج١ص٤٥٣.
(١٩) يا سوف، جماليات المفردة القرآنيّة:ص٢٥٥.

قائمة المصادر والمراجع

١- المجلسي ، محمّد، بحار الأنوار، ط٢، المطبعة الإسلاميّة، طهران، إيران، ١٩٧٨م.

٢- لارسون، الترجمة القائمة على المعنى، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.

٣- الزركشي، محمّد، البرهان في علوم القرآن، ط١، دار إحياء الكتب العربيّة، بيروت، لبنان، ١٣٧٦هـ.

٤- الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، ط١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠١ه.

٥- السيوطي، عبد الرحمن، الجامع الصغير من حديث البشير النذير، ط١، دار القرآن، القاهرة، مصر، د.ت.

٦- جروم، النقد الفني، دراسة جمالية وفلسفية، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان، ١٩٨١م.

٧- تليمة، عبد المنعم، مداخل إلى علم الجمال الأدبي، ط١، دار الثقافة –القاهرة ، مصر، ١٩٧٨م.

٨- الحسيني، جعفر باقر، أساليب المعاني في القرآن ، ط٢، مؤسسة بوستان كتاب، طهران، إيران، ٢٠٠٩م.

٩- الناصر، عبد الحسن، خطاب السيّدة الزهراء دراسة لغوية، ط١، النعمان، النجف الأشرف، العراق، ٢٠١٢م.

١٠- البستاني، محمود، البلاغة الحديثة، ط١، دار الفقه للطباعة والنشر، قم المقدّسة، إيران، ط١، ٢٠٠٤م.

١١- الجارم، علي وأمين، مصطفى، البلاغة الواضحة، ط١، المكتبة العلميّة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

١٢- ضيف، شوقي، فصول في الشعر ونقده، ط١، دار القاهرة، القاهرة، مصر، ١٩٩٧م.

١٣- ابن الأثير، علي، الجامع الكبير، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ.

١٤- عبد المطلب، محمّد ، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ط١، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.

١٥- العباسي، عبد الرحيم، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، د.ط، عالم الكتاب، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

١٦- ابن رشيق، أبو علي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ط٥، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.

١٧- يا سوف، أحمد، جماليات المفردة القرآنيّة، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ١٩٩٩م.